

كَمْ مِنْ عُهُودٍ عَذْبَةٍ فِي عَدْوَةِ الْوَادِي النَّضِيرِ
فَضِيَّةِ الْأَسْحَارِ مُذْهَبَةِ الْأَصَائِلِ وَالْبُكُورِ
كَانَتْ أَرْقَ مِنْ الزُّهُورِ، وَمِنْ أَغَارِيدِ الطُّيُورِ
وَأَلَذَّ مِنْ سِحْرِ الصَّبَا فِي بَسْمَةِ الْوَلَدِ الْغَرِيرِ
قَضَيْتُهَا وَمَعِيَ الْحَبِيبَةُ لَا رَقِيبَ وَلَا نَذِيرَ
إِلَّا الطُّفُولَةَ حَوْلَنَا تَلْهُو مَعَ الْحُبِّ الصَّغِيرِ
أَيَّامَ كَانَتْ لِلْحَيَاةِ حَلَاوَةَ الرُّوْضِ الْمَطِيرِ
وِطْهَارَةَ الْمَوْجِ الْجَمِيلِ، وَسِحْرَ شَاطِئِهِ الْمُنِيرِ
وَوِدَاعَةَ الْعَصْفُورِ، بَيْنَ جَدَاوِلِ الْمَاءِ النَّمِيرِ
أَيَّامَ لَمْ نَعْرِفْ مِنَ الدُّنْيَا سِوَى مَرَحِ السُّرُورِ
وَتَتَبُّعِ النَّحْلِ الْأَنِيقِ وَقَطْفِ تَيْجَانِ الزُّهُورِ
وَتَسَلُّقِ الْجَبَلِ الْمَكَلَّلِ بِالصَّنَوْبَرِ وَالصَّخُورِ
وَبِنَاءِ أَكْوَاحِ الطُّفُولَةِ تَحْتَ أَعْشَاشِ الطُّيُورِ
مَسْقُوفَةً بِالْوَرْدِ، وَالْأَعْشَابِ وَالْوَرَقِ النَّضِيرِ
نَبْنِي، فَتَهْدِمُهَا الرِّيَّاحُ، فَلَا نَضِجُ وَلَا نَثُورُ
وَنَعُودُ نَضْحَكَ لِلْمَرْوَجِ، وَلِلزَّنَابِقِ، وَالغَدِيرِ
وَنَخَاطِبُ الْأَصْدَاءِ، وَهِيَ تَرَفُّ فِي الْوَادِي الْمُنِيرِ
وَنَعِيدُ أَغْنِيَةَ السُّوَاكِي، وَهِيَ تَلْغُو بِالْخَرِيرِ
وَنَظْلُ نَرْكُضِ خَلْفِ أَسْرَابِ الْفَرَاشِ الْمَسْتَطِيرِ
وَنَمْرُ مَا بَيْنَ الْمَرْوَجِ الْخَضِرِ، فِي سَكْرِ الشُّعُورِ
نَشْدُو، وَنَرْقُصُ - كَالْبَلَابِلِ - لِلْحَيَاةِ، وَالْحَبُورِ
وَنَظْلُ نَنْثُرُ لِلْفَضَاءِ الرَّحْبِ، وَالنَّهْرِ الْكَبِيرِ
مَا فِي فُؤَادِنَا مِنَ الْأَحْلَامِ، أَوْ حُلُومِ الْغُرُورِ

ونَشِيدُ في الأفقِ المخبَّبِ من أمانينا قصور
أزهى من الشفقِ الجميلِ، ورؤنقِ المرجِ الخضيرِ
وأجلَّ من هذا الوجودِ، وكلِّ أمجادِ الدهورِ
أبدًا، تُدَلِّها الحياةُ بكلِّ أنواعِ السرورِ
وتبتُّ فينا من مراحِ الكونِ ما يغوي الوقورِ
ففسيرُ، نَنشُدُ لهونا المبعودِ - في كلِّ الأمورِ
ونظلِ نعبثُ بالجليلِ من الوجودِ، وبالحقيرِ:
بالسائلِ الأعمى وبالمعتوهِ، والشيخِ الكبيرِ
بالقطةِ البيضاءِ، بالشاةِ الوديعَةِ، بالحميرِ
بالعشبِ، بالفنِ المنورِ، بالسنابلِ، بالسَّفيرِ
بالرَّمْلِ، بالصخرِ المحطَّمِ، بالجداولِ ، بالغديرِ
واللهوِ، والعبثِ البريءِ، الحلوِ ، مطمحنا الأخيرِ
ونظلِ نقفزُ، أو نُثَرِّثُ أو نغني، أو ندورُ
لا نسأمُ اللهوَ الجميلِ، وليس يدركنا الفتورُ
فكأننا نحيا بأعصابِ من المرحِ المثيرِ
وكأننا نمشي بأقدامِ مجنَّحةٍ، تطيرُ
أيامَ كنا لبَّ هذا الكونِ، والباقي قشورُ
أيامَ تفرشُ سُبُلنا الدنيا بأوراقِ الزهورِ
وتمرُّ أيامُ الحياةِ بنا، كأسرابِ الطيورِ
بيضاءِ لاعبةٍ، مُغرِّدةٍ مجنَّحةٍ بنورِ
وتُرفرفُ الأفراحُ فوق رؤوسنا أنى نسيرُ
آه! تواري فجريِ القدسيِّ في ليلِ الدهورِ
وفنى، كما يفنى النشيدُ الحلو في صمتِ الأثيرِ

أواه، قد ضاعت عليَّ سعادةُ القلب الغريزِ
وبقيت في وادي الزمان الجهم أدب في المسير
وأدوسُ أشواك الحياة بقلبي الدامي الكسيرِ
وأرى الأباطيل الكثيرة، والمآثم، والشورِ
وتصادمُ الأهواء بالأهواء في كل الأمورِ
ومدلةُ الحقِّ الضعيفِ، وعزةُ الظلم القديرِ!
وأرى ابنَ آدمَ سائرًا في رحلةِ العمرِ القصيرِ
ما بين أهوال الوجودِ، وتحت أعباء الضميرِ
متسلِّقًا جبلَ الحياةِ الوعرَ، كالشَّيخِ الضَّريرِ
دامي الأكفِ، مُمزَّقَ الأقدامِ، مُغَبَّرَ الشعورِ
مُترنِّحَ الخطواتِ ما بين المزالق والصُّخورِ
هالتهُ أشباحُ الظلامِ، وراعهُ صوتُ القبورِ
ودويُّ إعصارِ الأسي، والموتِ، في تلك الوُعرِ
ماذا جنيتُ من الحياةِ ومن تجاريبِ الدهورِ
غيرَ الندامةِ والأسي واليأسِ والدمعِ الغزيرِ؟
هذا حِصادي من حقولِ العالمِ الرحبِ الخطيرِ
هذا حِصادي كلُّه، في يقظةِ العهدِ الأخيرِ
قد كنتُ في زمنِ الطفولةِ، و السذاجةِ و الطهورِ
أحيا كما تحيا البلابلُ، والجداولُ، والزُّهورِ
لا نحفلُ، الدنيا تدورُ بأهلها، أو لا تدورُ
واليومَ أحيا مُرَهَقَ الأعصابِ، مشبوبِ الشعورِ
مُتأجِّجَ الإحساسِ، أحفلُ بالعظيمِ، وبالحقيرِ
تمشي على قلبي الحياةُ، ويزحف الكون الكبيرِ

هذا مصيري، يا بني، فما أشقى المصيرُ

أبو القاسم الشابي